المنطق الذي ارساه بن ـ غوريون، وشجع عليه، ليتحوّل، فيما بعد، الى عقيدة يصبح الخروج عليها نوعاً من الكفر. وهكذا نشط جيش من الدبلوماسيين، والسماسرة، ورجال الاستخبارات، والموظفين، والعملاء، في انحاء العالم، جنوباً وشمالاً، شرقاً وغرباً، من اجل حثّ اليهود هناك على الهجرة. وعقدت صفقات تجارية واقتصادية مع حكومات اوروبا الشرقية، غايتها الاساسية المقايضة على هجرة اليهود؛ بل لقد وصل الأمر، في احيان كثيرة، الى حد دفع مبالغ مالية، ضريبة، عن كل شخص يهودي، واحياناً كانت الصفقة تشتمل على جدول تسعيرة بحسب نوعية الاشخاص. فالشبان ليسوا كالكهول والشيوخ، والاصحاء الاقوياء ليسوا كالمرضى وذوي العاهات. هكذا سارت الامور في اوروبا. أمّا في الدول التي لم تمنح حرية الهجرة لليهود، كما كان الأمر في شمال أفريقيا والعراق واليمن، فقد نظم مبعوثو مؤسسة الهجرة خطوط تهريب ليلية عبر الغابات والمسارب الجبلية. واستعانت المؤسسة، مثلها مثل أي جهاز استخبارات سري، باسماء مستعارة ورموز: فالمبعوث الى «غوشن» (مصر) لم يكن يوقع الا باسمه المستعار «ماكسي»؛ وكان العراق يسمى «برمان»؛ وايران «غولدمان»، وهكذا دواليك. واستعانوا بشبكة من المتعاونين والمخبرين من كل الانواع تضم مفتشي جمارك وشرطة حدود ورجال شرطة سرية ومحافظين وضباطاً عسكريين وقناصل دول اجنبية وحتى وزراء ورؤساء دول. وفي كل مكان، تقريباً، كان مبعوثو مؤسسة الهجرة يعرضون الرشوة، وقد فتحت حسابات مالية في مصارف سويسرية لهذا الغرض. كان الوزراء المغاربة، في ذلك الوقت، يفضلون الرشوة من طريق هذه المصارف؛ فيما كان سلاطين اليمن يفضلون دولارات نقدية؛ وكذلك كان الرومانيون يفضلون، ايضاً، أموالاً نقدية.

بيد ان هؤلاء المبعوثين لم يكونوا سماسرة محترفين ومتعهدين أذكياء فحسب؛ بل كانوا، الى جانب ذلك، محترفي دعاية، وارهابيين. وقد تضمنت الدعاية التي بثّوها الترهيب والترغيب. كانوا يحذّرون اليهود من ان انهم اذا لم يخرجوا، فوراً، فلن يستطيعوا الخروج فيما بعد؛ ولم يصوّروا لهم الامر على حقيقته في اسرائيل، حيث كان المهاجرون الجدد يقيمون في معسكرات شبيهة بمعسكرات الاعتقال. وقد عملوا، لمقتضى نجاح الدعاية، لفرض الرقابة على رسائل المهاجرين من اسرائيل، خشية افتضاح ما يحدث، وكشف الاكاذيب حول الوعود التي اعطوها لهم. وهذه رسالة واحدة من تلك التي اوقفها الرقيب، من مهاجر الى امّه، كتب فيها:

«لقد كذبوا علي، اريد ان أعود فوراً. اذا لم أعد خلال اسبوع، فسأقضي جوعاً. رجاء، عزيزتي، اجمعي تبرّعات؛ أطلبي قروضاً؛ اسرقي؛ ارهني ما لديك؛ المهم ان تبعثي اليّ بنقود... ان هذا البلد لا ربّ له».

لقد كانت الدوافع أقوى من عواطف ذلك الشاب المسكين، الذي لم تستطع امّه ان تتسلم رسالته. فالهجرة ليست لانقاذ اليهود، وانما لانقاذ «الدولة»، التي تحتاج إلى«الايدي التي تعمل وتقاتل». ولهذا الاعتبار، فقد سعوا الى التشديد على هجرة الشباب وترك المسنين وذوي العاهات. وكان هذا هو أول مؤشر الى انفصال «الدولة» عن الدعوة. ولبناء الدولة المحاربة، شدّدوا على أولوية الاهتمام بجلب اليهود الاوروبيين الاكثر تشرباً للحضارة والعلم والقيم الغربية ـ النوعية، ولم يعبأوا بالمشكلات المعقدة والخطيرة التي واجهت عمليات استيعاب المهاجرين الجدد، وتوفير المسكن والحياة اللائقة لهم.

وحين بدأت الانتقادات، وأخذ الصراخ يعلو، بسبب نقص القدرة على استيعاب المهاجرين الجدد، كان هناك من رأى في ذلك «انهزامية»، وقلّة ايمان. أي كان هناك من استخدم الارهاب الفكري في قمع هذه الاصوات. ولقد عارض بن ـ غوريون أي تقييد على الهجرة كما هو متوقع منه، ولم يجد أمامه غير التوراة ليشحذ همم «الانهزاميين» في الدولة. «بحسب علمي لم تكن هناك منازل، ولا عمل، لستة آلاف يهودي خرجوا من مصر. وعلى الرغم من ذلك، فان موسى لم يتردد لحظة واحدة في اخراجهم». وهكذا نظر الى الهجرة ايضاً، باعتبارها مغامرة تقارن بالخروج اليهودي في العهد القديم، يجب الانتصار فيها. ان الرهان اليهودي التقليدي الذي وصل حدود المقامرة، هو الذي تحكم، في وقت مبكر، في تغليب الارتجال على التنظيم. كانت القاعدة الموجّهة في الدولة تتلخص في ان الهجرة يجب ان تستمر بأي ثمن. ولا ينبغي ان يحول نقص الامكانات في الاستيعاب دون ذلك. وعلى هذا النحو، كان ينظر الى ما يجري في معسكرات الهجرة من مشكلات، باعتبارها اموراً ثانوية، على الرغم من